الحيل والخدع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو الصليبى حتى وفاة نور الدين محمود
(١٠٩٨ ــ ١١٧٤م/٤٩٤ ــ ٥٦٩هـ)

اعداد
دكتــور
ابراهيم خميس ابراهيم
مدرس التاريخ الوسيط ــ بكلية الاداب
جامعة الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

عرفت البشرية الحروب منذ أقدم العصور ، وتعددت أسلحتها وأساليبها واختلفت من عصر إلى آخر باختلاف الزمان والمكان والظروف . وشهدت الفترة التى قام فيها الصراع بين المسلمين و الصليبيين اساليب متعددة من الحيل والخدع العسكرية التى مارسها الجانبان على حد سواء . وقد اظهر المسلمون تفوقا واضحا على الصليبيين فى اساليب الحرب والقتال ، الأمر الذى أكده كثير من الكتاب الغربيين الذين عاصروا هذا الصراع . وعنوان بحثنا هو « الحيل والخدع العسكرية الاسلامية منذ بداية الغزو الصليبى حتى وفاة نور الدين محمود (١٠٩٨ — ١١٧٤م/٤٩٤ — ٥٦٩هـ) » .

تحدثنا فى البداية عن المقصود بالحيل والخدع العسكرية ، ثم بينا الفرق بينهما وأعقبنا ذلك بالاشارة الى أوجه استخدامات الحيل العسكرية ووسائلها مستشهدين ببعض الامثلة عن استخدامات المسلمين لها فى صراعهم مع الصليبيين أما عن الخدع العسكرية فقد تحدثنا عن أساليبها المختلفة ومنها خدعة الكمين ، وحددنا الشروط التى يجب مراعاتها لانجاح تلك الخدعة ، وبينا مدى نجاح المسلمين فى استخدامها ثم أشرنا إلى خدعة الارتداد الظاهري وأوردنا بعض الأمثلة التى توضح استخدام القوات الاسلامية لها ضد الصليبيين ، وأعقبنا ذلك بالحديث عن خدعة الهجوم التمويهى وبينا أثر استخدام المسلمين لتلك الخدعة على مجريات الاحداث فوق رقعة الشرق الأدنى الاسلامى . واختتمنا البحث بالاشارة الى كيفية استخدام المسلمين للظاهرات الطبيعية فى اعمال الخدع العسكرية . وفى الختام ، ادعو المولى القدير أن أكون قد وفقت فيما فيه صالح أمتنا الاسلامية ، والله ولى التوفيق .

د . ابراهيم خميس ابراهيم

لاريب أن الحيل والخدع العسكرية تعد من تدابير الحرب فى أى زمان ومكان وتؤثر على مجرياتها . وقبل أن نبين أهميتها فى الصراع الاسلامى الصليبى لابد من أن نقوم بتعريف كل من الحيل والخدع العسكرية الإسلامية ، ونوضح الفرق بينهما .

لم تشر قواميس اللغة العربية الى تعريف كل من الحيل والخدع العسكرية ، بينما يوضح الأنصارى أن الحيلة هى التى تمكن القائد العسكرى من « الحصول على الظفر ، مع سلامة النفس وحفظ الجند والراحة من التعب »[1] . وعلى هذا فان الحيلة العسكرية هى التى تحقق النصر على الأعداء دون الاشتباك معهم فى معارك وذلك أن القائد العسكرى فى أية معركة لايحقق النصر دون خسائر ، ودون أن يتعرض جنده للاخطار فى القتل والجراح[2] ، وبالحيلة أو المكيدة يجنب جنده تلك المخاطر ، أو بأقل قدر من الخسائر البشرية والمادية .

أما عن الغرض من إستخدام الحيل العسكرية فيتمثل فى تفريق شمل الخصوم ، وايقاع الخلف بينهم ووثوب بعضهم ببعض[3] ، وابعاد خطرهم[4] ، وإستلاك قلاعهم ومدنهم[5] .

وبالنسبة لتعريف الخدعة العسكرية يتضح من المصادر العربية وغير العربية[6] أنها تمثل الوسيلة التى عن طريقها يغرى القائد العسكرى قوات أعدائه الى التوجه الى أماكن يتم فيها هزيمتهم . وبذلك تتفق الحيلة العسكرية مع الخدعة فى الغاية وهى تحقيق النصر ويختلفان فى الوسيلة ، فالاولى تجنب الاخطار ، والثانية تؤدى الى الظفر مع وقوع بعض الخسائر .

---

(١) الأنصارى : تفريج الكروب فى تدبير الحروب ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٢٧ .

(٢) المرتى : مختصر سياسة الحروب ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢١ .

(٣) الانصارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٣ج ، بيروت ١٩٧٩م ، ج ١١ ، ص ٥٨ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ٣ج ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٣ — ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ١٢٦ .

(٦) عن تلك المصادر انظر الصفحات التالية .

والتساؤلات التى تطرح نفسها هنا هى : متى يلجأ القائد الى الحيلة ؟ ، والى وسائلها ؟ ، والى أى مدى طبقها القادة المسلمون اثناء صراعهم مع الصليبيين ؟ . وبالنسبة للاجابة عن التساؤل الأول نوضح : أن من بين الصفات التى يجب أن تتوافر فى القادة العسكريين ، حسن البصيرة فى اختيار المواضع المناسبة لاستخدام الحيل والمكايدة ، وبلوغ القصد بأدنى الحيل ، وان لايعمل على النزال اذا وجد للحيلة سبيلا[1] ، ويلجأ القائد إلى إستخدام الحيل العسكرية فى الاحوال الاتية :

أولا : اذا كان جيشه أقل عدادا وعدة من جيش اعدائه . ففى هذه الحالة يجب على القائد أن يلجأ الى الحيلة ولا يتعجل فى لقاء أعدائه ، ولايتعرض لهم إن أعرضوا عن القتال ، حتى لايكون كمن « أثار الحية من جحرها[2] فعرض نفسه للضرر .

ثانيا : الظفر بأسرّ أحد قادة الاعداء ، ويتمثل هذا الجانب فى استخدام نور الدين محمود الحيلة فى القبض على جو سلين الثانى Joscelin II حاكم الرها الصليبى سابقا ، وتل باشرانذاك (١١٣١ ـــ ١١٥٩/٥٢٦ ـــ ٥٥٤هـ) بعد ما رأى أن استخدام القوة العسكرية لاتجدى نفعا معه[3] .

ثالثا : فتح المدن التى يصعب أخذها بالقهر . ويتضح ذلك فى أخذ نور الدين محمود مدينة دمشق بالحيلة عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م بعد أن فشلت المحاولات العسكرية فى فتحها[4] .

---

(١) المرشى : المصدر السابق ، صـ ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ـــ ٢٠ .

(٢) الأنصارى : المصدر السابق ، صـ ٤٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ١٥٤ ، وايضا :

Willam of Tyre Ahistory of Deeds done Beyond the sea, 2 Vol., New York, 1943 Vol. II, P. 201

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ٣ج ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١ ، جـ٢ ، ص ٣٠٤ .

وبالنسبة الى الوسائل التى تؤدى الى نجاح الحيلة فتتمثل فى توفيق القائد فى استمالة قلوب بعض الاعداء بأن يعدهم بكل جميل ، ويتحفهم بالهدايا ويطمع آمالهم فى بلوغ كل مقصود ، وان يعفو عنهم ويصفح عن جرائمهم ان مالوا اليه ويبذل الامان لكل من سأله منهم ، ويدعوهم الى الوثوب على رؤسائهم إن أمكنهم ، أو يعتزلوهم ويخرجوا عليهم ، وايضا فى أن يكتب الى قادة خصومه كتبا كأنها جواب عن كتب وصلت اليه من بعض أعوانهم ، ويلقيها فى المواقع التى يتوقع أن يعثروا عليها فيؤدى ذلك الى افتراق كلمتهم ، وتشتيت جماعتهم ، وتتغير خواطر بعضهم من بعض مما يجعلهم يقتل بعضهم بعضا[1]

أما عن اجابة التساؤل الاخير ، فيجب الاشارة أولا الى أن الحيلة والخدعة فى الحرب امران لاغبار عليهما ، وذلك بما ورد فى الصحيحين عن ابى هريرة وجابر ابن عبد الله الانصارى — رضى الله عنهما — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الحرب خدعة » .

استخدم القادة المسلمون الحيل العسكرية المختلفة فى حروبهم مع الصليبيين ففى عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ حاول الامير النورمانى بوهمند الأول Bohemond 1 حاكم أنطاكية (١٠٩٨ — ١١٠٤م/٤٩١ — ٤٩٧هـ) الاستيلاء على مدينة جبلة[2] ، فأرسل إليها حملة تعرض فيها معظم افرادها للقتل أو الأسر ، بسبب أعمال الحيلة . ذلك عندما رأى حاكم المدينة أبو محمد عبد الله بن منصور المعروف بأبن صليحة اصرار الصليبيين على الاستيلاء على مدينته ، جعل بعض المسيحين الوطنيين فى جبلة يراسلون الصليبيين ، ويهونوا عليهم سهولة الاستيلاء عليها عن طريق مساعدتهم فى النفاذ الى داخلها عبر أحد أبراجها ليلا . لذا أرسل بوهمند تلك الحملة ، فتوجهت الى البرج المذكور فى الرسالة ، وتسلقه رجالها بالحبال فى ظلمة الليل بينما كان فى انتظارهم ابو صليحة ورجاله ، كلما صعد منهم نفر قبض

---

(١) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٢٨ — ٢٩

(٢) جبلة : مدينة بالشام ، تطل على الساحل ، وهى من اعمال اللاذقية ، وتقع بالقرب من مدينة حلب راجع : البغدادى المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١٢

عليهم وقتلهم وفى الصباح رمى برؤوس القتلى فرحل من تبقى منهم[1] . وهكذا مارس بعض القادة المسلمين أعمال الحيلة مع الصليبيين بعد مجيئهم الى الشرق الأدنى الاسلامى بزمن قصير ، وأنزلوا الخسائر بهم ، وأثبتوا لهم أنهم أمام عقلية عسكرية فذة .

استمر المسلمون فى استخدام أعمال الحيلة فى حروبهم مع الصليبيين ابان الفترة الزمنية موضوع البحث . ففى عام ٤٩٧هـ / ١١٠٤م قام معين الدولة سكمان الأرتقى حاكم ماردين وديار بكر — بعد أن انتصر على الصليبيين فى العام نفسه[2] ، قام باستخدام الحيلة ، اذ جرد أسرى الفرنج الذين وقعوا فى قبضته من ملابسهم ، وألبسها عسكره ، وأركبهم خيل الفرنج ، وقلدهم أسلحتهم ، وتوجه الى الحصون الصليبية المجاورة لمنطقة شيحان[3] ، وخرج اليه المدافعون عنها من الصليبيين ظنا منهم أن أصحابهم قد انتصروا ، فقبض عليهم ، وقتلهم ، وأخذ الحصون منهم[4] .

كما استخدم المسلمون الحيلة لاحداث الفرقة والتنافر بين الصليبيين والبيزنطيين فعندما بدأت اليقظة العربية الاسلامية التى كان من بين روادها الأوائل مودود واقسنقر البرسقى ، تقوى وتشتد على يد عماد الدين زنكى حاكم الموصل وحلب ، رأى الصليبيون ضرورة تصفية الخلاف مع البيزنطيين ، والتحالف معهم ضد المسلمين . وعندما بدأت القوتان المتحالفتان فى مهاجمة بعض المدن الاسلامية فى شمال الشام[5] عام ١١٣٨م/٥٣٢هـ لجأ عماد الدين الى الحيلة ،

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٣١٠ — ٣١١ ، وايضا :
Albert d'Aix, historia hietosolymi tona, in R.H.C.- H Occ. vol. PP, 582-583.

(٢) عن أحداث تلك المعركة ، وما قام به المسلمون من خدع عسكرية ، انظر الصفحات التالية .

(٣) شيحان : منطقة تشرف على الجبال التى تحيط بمدينة بيت المقدس . راجع : البغدادى - مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ٣ ج ، القاهرة ١٩٥٤م جـ٢ ، ص ٨٢٤ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٣٧٥ .

(٥) عن هذا التحالف ، والهجوم على المدن الاسلامية راجع : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق بيروت ١٩٠٨م ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ ، أسامة بن منقذ : الاعتبار ، تحقيق فيليب حتى ، برنستون ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ١٩٣٠ ، ص١١٣ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٥٦ — ٥٧ ، وايضا

فكان يرسل الى الامبراطور البيزنطى جناكومنين John comnenus (١١١٨ ــ ١١٤٣م/ ٥١٢ ــ ٥٣٨هـ) يوهمه بأن الصليبيين خائفون منه ، وأنه لو فارق مكانه لتخلوا عنه ، ويرسل الى الصليبيين يخوفهم من الامبراطور البيزنطى ، ويقول لهم انه لو ملك حصنا واحد ملك بلادكم جميعا[1] ، وقد نفعت الحيلة وآتت أكلها ، اذ بدأ كل من المتحالفين يظن سوءا فى نوايا الآخر ، مما أدى الى فشل التحالف ، ورحيل الامبراطور البيزنطى عائدا الى القسطنطينية[2] .

أما عن نور الدين محمود فكان يكثر من أعمال الحيلة فى صراعه مع الصليبيين ، فعندما رأى أنه كلما سير بعض قواته لفتح ماتبقى من امارة الرها ، استعان حاكمها السابق جوسلين الثانى ببنى جلدتة من الصليبيين ، واحتمى بقلاعه الحصينة ، وأنه أساء لنور الدين عند والد زوجته[3] لكل ذلك مال نور الدين الى أعمال الحيلة فاستحضر جماعة من امراء التركمان ، ورغبهم كى يقوموا برصد تحركات الامير الصليبى[4] ، والقبض عليه[5] ، واحضاره قتيلا أو أسيرا ،

= William of Tyre. op. cit., vol. II, pp. 93-94 Micheal le Syrian, chronique de Michael le Syrian,

Patriarche Jacobite d'Antioche (1166-1199). 3 vols.

Paris, 1905, vol, III, p.245; Cinnamus. J. Epitome historiarum, in Corpus scriptorum historiae Byzantinae. Bonn, 1836, PP. 18-20; Nicetas choniates, historiarum in corpus scriptorum historiae Byzantinae, Bonn, 1835, PP. 37-40

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٥٨ .

William of Tyre, op., cit. vol. II. PP 96-99; cinnamus. op. cit., PP. 23 - 24

(٢) كان جوسلين الثانى قد نجح بفضل موازرة اخوانه الصليبيين فى تحقيق النصر على نور الدين محمود عام ١١٥٠م/٥٤٦هـ ، ووقع فى يد جوسلين أمير سلاح دار نور الدين أسيرا ، كما استولى على سلاح نور الدين ، فسير جوسلين كل هذا الى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونيه وقال له : هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو اعظم . ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٥٤

(٣) William of Tyre, op, cit., vol., II p. 201.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٥) ابن الأثير : نفس الموضع .

فكمن له التركمان حتى خرج ذات يوم متصيد[1] ، فلحقت به طائفة منهم ، وظفروا به أسيرا[2] وتمكن ابن الداية — نائب نور الدين فى حلب — من إحضاره الى سيده[3] ، فظل سجينا فى حلب تسع سنوات ، حتى مات فى عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ[4]

ولما كانت مدينة دمشق تمثل الصخرة التى تحطمت عليها محاولات نور الدين لاستكمال توحيد الجبهة الاسلامية المتحدة ، بسبب ميل حاكمها مجير الدين أبق الى الصليبيين ، وتحالفه معهم[5] ، واستنجاده بهم[6] كلما تقدمت اليها القوات الاسلامية لضمها الى الجبهة الاسلامية ، لذلك لجأ نور الدين الى أعمال الحيلة فراسل مجير الدين واستمالته وأتحفه بالهدايا ، وأظهر له المودة حتى وثق به ، ثم صار يكاتبه فى بعض الأوقات ويقول له : « ان فلانا — ويذكر بعض الأمراء الذين فى خدمة مجير الدين — قد كاتبنى فى تسليم دمشق »[7] وبتلك الحيلة نجح نور الدين فى بذر بذور الفرقة بين مجير الدين وبين أمرائه ، إذ انقلب عليهم ، فتارة يجرد أحدهم من اقطاعه ، وتارة يقضى على البعض الآخر ، وظل الأمر على هذا الحال الى أن خلت دمشق من معظم الأمراء ، وعندئذ قدم على مجير الدين أحد الامراء ويسمى عطاء بن حافظ السلمى ، كان نور الدين يعلم مدى قوته ، وأنه لن يتمكن من دخول دمشق فى وجود هذا الرجل ، فذكره من بين الأمراء الذين كاتبوه ، فقبض عليه مجير الدين ، وأراد قتله ، فقال له عطاء بن حافظ : أن الحيلة

---

(١) Gregory the Priest, continuation of Matthew of Edessais chroniche, in'R.H.C Doc. Arm., Vol, I; PP, 161 - 162

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣١٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٥٥ .

(٤) Michael the Syrian, op. cit, vol. III, p. 295.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٢٦

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٩٧ ، وايضا :
William of Tyre, op, cit, vol.11,p.149

(٧) ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ، ص ٣٤ .

قد تمت عليك فلا تقتلنى فانه سيظهر لك ماأقول فلم يصغ الى قوله وقتله[1] . وبهذا تكون الخطوة الاولى من خطة نور الدين قد نجحت ، وجعلت مجير الدين يتخلص من غالبية أمرائه داخل المدينة . أما الخطوة الثانية فقد جاءت عندما استغل نور الدين سخط العامة ورجال الحامية وتذمرهم ضد مجير الدين بسبب ميله للصليبيين ، وبسبب الضائقة الاقتصادية التى كانت تعانى منها المدينة وقتذاك[2] . فراسلهم نور الدين واستمالهم ، فمالوا اليه ، ووعدوه بالمساعدة وتسليم المدينة اليه[3] ، لما اشتهر به من العدل والديانة والاحسان[4] ، وبذلك ضمن نور الدين المساعدة من جانب سكان المدينة فى حالة اقتحامها . وأخيرا جاءت الخطوة الثالثة والاخيرة من مراحل الخيلة عندما أرسل نور الدين قائدة أسد الدين شيركوه من قبله الى مجير الدين ، ولكن الاخير وأى الجيش فى صحبة المبعوث ، فلم يسمح له بدخول المدينة ، ولم يستقبله[5] ، فاعتبر نور الدين فى ذلك اهانة لمبعوثه ، وبدأ فى الاستعداد لاقتحام المدينة . وفى صفر ٥٤٩هـ/أبريل ١١٥٤م هاجمت قوات نور الدين أسوار دمشق[6] ، وفى الوقت نفسه ثار العامة الذين راسلهم نور الدين فى داخل المدينة[7] . ويوضح كل من ابن القلانسى وأبو شامة أن مجير الدين لم يكن مكروها من أهالى دمشق من المسلمين فحسب ، انما أيضا من غير المسلمين ، اذ يشيران الى أن امرأة يهودية قد ألقت بالحبل من فوق سور المدينة فتسلق عليه بعض جند نور الدين ، واعتلوا السور ، بينما أسرع نفر آخر من أهالى المدينة بتحطيم أغلاق ابواب السور وفتحها لدخول بقية العسكر[8] . أما مجير الدين فعندما شعر بأن زمام الأمور قد بدأ يفلت من بين يديه ، استنجد

(١) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٢ج فى مجلد واحد ، القاهرة ١٢٨٧هـ ، ج١ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٩٨ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ .

(٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٧) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ١٩٨ .

(٨) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، ابو شامة : المصدر السابق ، جـ١ ص ٩٦ .

بالصليبيين وبذل لهم الأموال ، ووعدهم بتسليم قلعة بعلبك[1] اليهم اذا هم ساعدوه لجعل نور الدين يرحل عنه ، فزحفوا لنجدته ، ولكنهم وصلوا بعد أن تسلم نور الدين دمشق ، فعادوا بخفي حنين[2] .

لم تقتصر أعمال الحيلة لنور الدين عند هذا الحد ، انما كان أيضا يخادع مليح ابن ليون الأرمينى أمير قليقية (١١٧٠ ــ ١١٧٥م/٥٦٥ ــ ٥٧٠هـ) ويستميله حتى جعله فى خدمته ، وكان يقاتل به الصليبيين ، وذلك لان بلاده كانت حصينة ، ووعرة المسالك ، وقلاعه منيعة ، وليس للمسلمين اليها طريق[3] ، فأقطعه نور الدين القطاعات فى المناطق الاسلامية ولما قيل له فى معنى استخدامه واعطائه الاقطاع من بلاد الاسلام قال : أعتمد عليه فى قتال الصليبيين ، وأربح بذلك عسكرى[4] . ولاريب أن نور الدين كان صائبا فى هذا الاتجاه لأن الذى أهدى به ابن ليون مهما بلغت قيمته لايعادل تكلفة خروج القوات الى تلك المناطق وتحملها المشاق والعناء ، ومايلحق بها من اضرار .

كما استخدم نور الدين الحيلة العسكرية لاجبار الصليبيين لفك الحصار ومحازبة قواته ، فعندما ضعفت الدولة الفاطمية ، وتطلع كل المسلمين وعلى رأسهم نور الدين محمود ، والصليبيين وعلى رأسهم عمورى الأول Amury I ملك بين المقدس الصليبى (١١٦٣ ــ ١١٧٤م / ٥٥٨ ــ ٥٦٩هـ) الى مصر للسيطرة عليها ،

---

(١) بعلبك : مدينة بالشام ، تقع بالقرب من مدينة دمشق ، على بعد مسيرة ثلاثة أيام منها وكانت مدينة حصينة على سفح جبل لبنان ، ويحيط بها سور عرضه عشرون شبرا ، وأرضها خصبة ، وبها الماء وسطها . راجع : البغدادى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨ ، البكرى : معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، ج ، بيروت (بدون تاريخ) جـ١ ، ص ٢٦٠ ، الحميرى:الروض المعطار فى خبر الأقطار ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٠٥ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, P. 204

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٨ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٣٨٧ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, pp. 332 340.

بأساليب مختلفة ، وطرق متعددة ، وجنوا من وراء ذلك ثمارا عديدة وتنحصر تلك الأساليب فيما يلى :

أولا : الكمائن : استخدم المسلمون الكمائن للتربص بالقوات الصليبية والانقضاض عليها ، وانزال الهزائم بها ، وكان فن إستخدام الكمائن له أسس يجب مراعاتها عند اختيار جند الكمائن وخيولهم وأسلحتهم ، ومكان الكمين ، وما يجب عليهم عند بدء الكمين ، وتمثلت تلك الأسس فى عدة نقاط :

(١) اختيار الجند :

يجب أن يختاروا من بين العارفين بأحوال الخيول وآلاتها ، ولديهم بعض المعرفة بشئون البيطرة ، كى يكونوا قادرين على اصلاح الآلات والأسلحة ، وعلاج الخيل حين تدعوا الضرورة الى ذلك ، وأن يكونوا ممن لهم دراية جيدة بركوب الخيل وحركاتها فى الحرب ، وممن لديهم صبر وجلد فى السعى على الأقدام ، ومن العارفين بمواقع الدروب ومسالكها والمدافعة ومحاورة الفرسان[1] ، وألا يكون بأحد منهم علة[2] ، وأن يكونوا أشجع فرسان العسكر ، وأكثرهم دراية بشئون الحرب ، وأعرفهم بالتجارب ، ذلك لأنهم ينفردون عن العسكر ويكونون فى مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولاينجدهم ، ويجب أن يكون عليهم مقدم عارف بأمور الحروب ، عالم بأحوال الأماكن الصالحة للاختفاء[3] .

(٢) الخيول :

يجب ألا يكون بها علة[4] ، وتنتقى من بين السوابق الجيدة ، سالمة الحوافر ، وتختار جميعها إما من الذكور أو من الاناث ، لأنه لو اجتمع الذكور مع الأناث

(١) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٤٢

(٢) المرئى : المصدر السابق ، ص ٥٠

(٣) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٤) المرئى : المصدر السابق ، ص ٥٠ .

وتوالت الحملات الاسلامية والصليبية على مصر[1] ، وجرت بينهما كثير من المعارك ، ومنها ماحدث عندما أرسل نور الدين عام ١١٦٩م / ٥٥٩هـ حملته الاولى على مصر بقيادة قائده أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمساندة الوزير الفاطمى شاور . ولكن الاخير تراجع عن عهوده ، وتنكر لأسد الدين شيركوه ، فما كان من قائد نور الدين الا أن توجه الى مدينة بلبيس واعتصم بداخلها ، عندئذ استنجد شاور بالملك الصليبى عمورى ، الذى لبى النداء ، وقدم على وجه السرعة ، وشارك بقواته مع جيش شاور فى حصار مدينة بلبيس وبداخلها قوات نور الدين . وعندئذ لجأ الاخير الى أعمال الحيلة ، فهاجم قلاع الصليبيين فى بانياس وطبرية ، وجمع أعلام الصليبيين ورايتهم وأرسلها مع أحد رجاله الى أسد الدين شيركوه لادخالها اليه خفية ، وطلب منه أن يرفعها على أسوار مدينة بلبيس ، فلما رأى الصليبيون تلك الأعلام والرايات خافوا على أملاكهم ، وانزعجوا ، وعجلوا بالرحيل الى الشام[2] .

وهكذا يتضح من العرض السابق أن المسلمين قد قاموا بأعمال الحيل العسكرية ضد الصليبيين بعد وصولهم الى الشرق الأدنى الاسلامى بسنوات قلائل ، وظلوا على استخدامها أثناء الصراع الصليبى الاسلامى ، وحققوا من وراء ذلك مكاسب عديدة سواء أكانت استعادة بعض المدن الاسلامية ، أو ضمها للجبهة الاسلامية المتحدة بعد حركة اليقظة فى بواكير القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى) أم بالقبض على بعض القادة الصليبيين ، أم باجبار الفرنج على فك الحصار عن المدن الاسلامية .

أما عن الخدع العسكرية فقد استخدمها المسلمون أثناء صراعهم مع الصليبيين

(١) عن تلك الحملات راجع : ابن الأثير : المصدر السابق جـ١١ ، ص ٢٩٨ ــ ٣٠٠ ، ٣٢٤ ــ ٣٢٧ ، ٣٣٥ ــ ٣٤٣ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit .VOL.111, PP. 332 - 340

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ، وايضا :

William of Tyre, op. cit., vol. 11, PP.295 - 300

Michael the syrian op. cit. VOL. III, PP. 332 - 333

ربما أوجب ذلك اثارة جلبة من صهيل الخيل أوصياحها ، فيؤدى إلى العلم بالكمين[1] ، كما يجب ألا يكون فيها حزن أو جماح[2] .

(٣) الأسلحة :

يجب أن تحفظ غالبية الأسلحة فى جعاب أو حقائب جلدية حتى لاتحدث خشخشة أو أصوات يستدل منها الاعداء على مكان الكمين[3]

(٤) مكان الكمين :

يجب أن يكون موضع الكمين خفيا مستترا ، وأن يكون مما يحتمل الاقامة فيه اذا دعت الحاجة الى طول الاقامة ، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر مايحتاج اليه الكمناء قدر الامكان[4]

(٥) مايجب على المكمنين عند بدء الكمين :

أول مايجب عليهم أن يختاروا من بينهم رجلا ممن يوثق به ويتحقق بنصيحته ، حتى اذا كان خلاف ذلك ، ربما يميل الى الأعداء ، ويدلهم على الكمين ، وتكون مهمته رصد تحركات الأعداء والابلاغ ، وعلى المكمنين أن يتجنبوا التعرض للصيد من الطير أو الحيوان ، حتى لاينتج عنه نفار الطير أو الحيوان فيستدل على ذلك أهل البصيرة من الأعداء ويعلموا بالكمين ، ويتعين بأن يكون وقت ظهور الكمين فى حال غفلة الأعداء ، وذلك عند حطهم عن دوابهم واراحتها ، ويختاروا الأوقات المناسبة كأخر ساعة فى الصيف ، وأبردها فى الشتاء ، وإذا لم يظفروا بمباغته الأعداء ، فعليهم الاسراع بالعودة الى مكمنهم[5] .

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٢٠ .
(٢) المرئى : المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٤٩
(٣) المرئى : المصدر السابق ، ص ٤٩ .
(٤) الأنصارى : المصدر السابق ، ص ٧٢ .
(٥) الأنصارى : المصدر السابق ص ٧٢ ، المرئى : المصدر السابق ، ص ٥٠

استخدم المسلمون أسلوب الكمائن فى الحيل العسكرية منذ قدوم الصليبيين الى الشرق الأدنى الاسلامى . ففى أثناء الحصار الصليبى لمدينة أنطاكية عام ١٠٩٧م/٥٩٠هـ ، تسللت جماعات من الحامية الاسلامية الى خارج المدينة ، ونصبت الكمائن للصليبيين الذين ابتعدوا عن معسكرهم أمام أنطاكية ، ونجحت احدى الجماعات فى أن تنصب كمينا للفرقة الصليبية التى كان يقودها كل من الأميرين الصليبيين بوهند النورماندى وريموند الصنجيلى ، وأنزلت بقواتها الهزيمة ، فمر الأميران مذعورين ، وعادا الى المعسكر الصليبى[1] .

وإذا كان أسلوب الكمائن له نمط واحد ، فان المسلمين قد طبقوه أثناء صراعهم بأساليب مختلفة . فعندما علم المسلمون مدى معاناة الصليبيين لنقص المؤن لديهم أثناء حصارهم لحصن الأكراد[2] فى عام ١٠٩٩م /٤٩١هـ . فتح المدافعون عن الحصن أحد الأبواب ودفعوا ببعض الماشية ، فانشغل الصليبيون بمطاردتها ، والامساك بها ، بينما انقض كمين من المسلمين خارج الحصن على الصليبيين بقيادة أميرهم ريموند الصنجيلى ، فأنزلوا بهم الهزيمة ، وكادوا يظفرون بأسره ، بعد مقتل معظم قواته[3] ، وبذلك يتضح أن الأمير الصليبى ريموند قد واجه الهزيمة على يد المسلمين فى حادثتين ، استخدم فيهما المسلمون خدعة الكمين ولكن بأسلوب مختلف وفى ظروف مختلفة .

استمر المسلمون فى استخدام خدعة الكمائن فى ظروف مختلفة استغلوها لانزال الخسائر بالصليبيين . فعندما شرع الصليبيون فى حصار مدينة بيت

---

(١) Raimondi d'Aguilers, Historia Francorum qui aperunt Jerusalem, in R.H. C.-H. Occ. Vol.III, Paris1866. P. 248

08Alberi d'Aix, Op. cit., PP. 383-384

(٢) حصن الاكراد . حصن منيع يقع غربى مدينة حمص ، وعلى جبل الجليل المتصل بجبل لبنان . راجع أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٩٨٠ ، ص ٢٥٩ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ٨ج ، القاهرة ١٣٢٤ ، جـ٧ ،ص٦٤ ،البغدادى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٤٠٦ .

(٣) حسن حبشى : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٠٩ وأيضا : Raimondi d'Aguilers, op. cit., pp. 273-274

المقدس فى عام ١٠٩٩م/٤٩٢هـ أخذوا يعانون من قلة المياة ، فاستغل المسلمون تلك المعاناة ووضعوا الكمائن على طول الطريق الممتد من المعسكر الصليبى ، وحتى ينابيع المياه على مسافة ستة أميال وقد نجحت تلك الكمائن فى قتل كثير من الصليبيين الذين توجهوا للحصول على المياه[١] كما إنتهز المسلمون جهل الصليبيين بالمسالك والدروب ، ونصبوا لهم كمينا فى العام نفسه عند مدينة الرملة ، وقتلوا الكثير منهم[٢] ، وأيضا انتهز طغتكين حاكم دمشق توجه بعض الصليبيين الذين ضربوا الحصار حول مدينة صور عام ١١١١م/٥٠٥هـ إلى المناطق القريبة من المدينة لجمع الاعلاف لخيولهم ، فنصب لهم كمينا ، نتج عنه قتل بعض فرسانهم ، ووقوع البعض الآخر فى الأسر[٣] .

لم تثمر أعمال الكمائن فى احداث الخسائر فى الجانب الصليبى فحسب ، انما ساعدت أيضا فى أسر أعداد كبيرة من فرسانهم ، فعندما حاول الملك الصليبى بلدوين الأول Baloduin I (١١٠٠ — ١١١٨م/٥٠٤ — ٥١٢هـ) التصدى لهجمات مودود أتابك الموصل ، والذى كان يسعى انذاك جاهدا لتوحيد الجبهة الاسلامية ومعه طغتكين حاكم دمشق ، وسارع الملك الصليبى بالتوجه بقواته فى عام ١١١٣م/٥٠٧هـ الى المنطقة التى تقع جنوب غرب بحيرة طبريه ، والمعروفة بجسر الصنبرة ، وقد نصبت القوات الاسلامية كمينا للصليبيين نجح فى أسر معظم قوات الملك الصليبى ، بينما تمكن بلدوين من الفرار بصعوبة بالغة[٤] .

---

(١) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١١٥ ، وأيضا :

Raimondi d'Aguilers, op. cit. p. 293

(٢) حسن حبشى : المرجع السابق ، ص ١١٦ ، وأيضا :

Raimondi d'Ayuilers, op. cit. pp. 294-295

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ، ص ٤٨٨ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 492-493

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٩٦ ، وأيضا :

Fulcher of Chartres A History of the Expedition of Jerusalem (1095 - 1127), Tennessee U.S.A., 1969, p. 190; William of Tyre, op. cit., VOL.I. P. 306

جدير بالاشارة ، أن أعمال الكمائن ضد الصليبيين لم تكن قاصرة على القوات العسكرية فحسب ، وانما شاركت فيه أيضا القبائل العربية ففى عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ قام جوسلين دى كورتناى Joscelin de Courtenay حاكم امارة الرها (١١١٨ — ١١٣١م / ٥١٨ — ٥٢٦هـ)، ومعه اثنان من كبار بارونات الجليل وهما الأخوان جودفرى Godfrey ووليم دى بيورى William de Bury ، قاموا بشن الغارات على طائفة من طى يعرفون ببنى خالد وبنى ربيعة ، أقاموا فى المنطقة الواقعة شرق الأردن ، وقد بدأ الصليبيون ببنى خالد ، فهاجموهم واستولوا على مامعهم ، وعزموا القصد أن يبادروا بنى ربيعة فى صباح اليوم التالى بالهجوم ، فما كان من بنى خالد الا أن أخبروا اخوانهم بأنباء الهجوم الصليبى ، فاستعدوا له ، ونصبوا كمينا للصليبيين ، نجحوا من خلاله فى أسر غالبية القوة الصليبية وقوامها مائة وخمسين فارسا كان من بينهم وليم دى بور وأخوة جود فرى ، بينما ضل جوسلين الطريق ، ولما بلغه خبر الوقعة ، عاد مسرعا الى طبرية[1] . واذا كان هذا الكمين قد آتى ثماره ، الا أننا يجب ألا ننسى أن اخبار بنى خالد اخوانهم بالهجوم الصليبى هو الذى دفع بنى ربيعة فى اعداد الكمين .

هذا عن خدعة الكمين التى طبقها المسلمون سواء أكانوا من الفرق العسكرية أم من رجال القبائل ضد الصليبيين ، ونجحوا من خلالها فى إحراز النصر عليهم ، أما عن بقية أنواع الخدع العسكرية فتتمثل فيما يلى :

ثانيا : الإرتداد الظاهرى :

أتاحت خفة الحركة للفرسان المسلمين القيام بأنواع مختلفة من الخدع العسكرية ، ومن بينهما خدعة الإرتداد الظاهرى التى كان يصحبها عادة نصب الكمائن ، اذ كانت بعض فرق الجيش الاسلامى تتظاهر بالهزيمة وتقوم الإرتداد لدفع المهاجمين الصليبيين الى ملاحقتهم ، والتوجه الى مكان الكمين ، فيتم الاطباق عليهم . وقد مارس المسلمون هذا النوع من الخدع العسكرية

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٥٥ـ٥٥٦ ، ابن العديم : المصدر السابق ج٢ ، ص ١٩٤ .

بأساليب مختلفة . ففى عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ هاجم الصليبيون مدينة جبلة ، ونجحوا فى احداث ثغرات فى سورها ، فخرج اليهم أبو صليحة حاكم المدينة بجماعة من جيشه عن طريق باب المدينة وأخذ يقاتلهم ، وتظاهر بالهزيمة والإرتداد ، فأخذ الصليبيون يلاحقونه ، وفى تلك اللحظة كان الجيش الرئيسى لأبى صليحة قد خرج من المدينة ، وأطبق على الصليبيين من خلفهم وأحرز النصر عليهم[1] .

كان لخدعة الإرتداد الظاهرى الفضل الأكبر فى انتصار المسلمين على الصليبيين فى معركة حران[2] عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ . اذ التقى الجيشان الاسلامى والصليبى فى السهل الشاسع الذى يقع جنوب نهر البليخ[3] .

مما منح المسلمين أرضامستوية شاسعة كى يمارسوا عليها خدعهم العسكرية اذ تظاهرت ميمنة جيش المسلمون بالهزيمة ، وأخذت فى الارتداد فظنت ميسرة الجيش الصليبى وعلى رأسها جوسلين دى كورتناى حاكم الرها أن النصر على المسلمين بات وشيكا ، فأخذت تطارد الميمنة الاسلامية الى أن انفصلت عن بقية الجيش الصليبى حتى اقتربت من موضع كمين القوات الاسلامية بالقرب من مجرى النهر ، وعندئذ خرج رجال الكمين وواجهوا الميسرة الصليبية ، بينما استدارت ميمنة الجيش الاسلامى ، فأطبق المسلمون على الصليبيين ، وأنزلوا بهم القتل والأسر ، أما بقية الجيش فأصبحت مهمته سهلة — بعد أن إنكشفت ميسرة الجيش الصليبى — من احراز النصر على بقية الصليبيين[4] وهكذا كانت

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٣١١ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., p. 583

(٢) حران : هناك عدة مواضع تحمل هذا الاسم ، والمقصود هنا المدينة التى تقع بالقرب من الرها عند ملتقى الطرق فى شرق الفرات ولاسيما طريق الشام وطريق الجزيرة ، راجع : ياقوت الحموى : المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، البغدادى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٨٩ .

(٣) البليخ : نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون أعظمها عين يقال لها القنصانية فى أرض حران ، راجع ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ١ ص ٣٧٤ ، البغدادى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٢١ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٤٨ ، وأيضا :

خفة الحركة ووجود أرض سهلة متسعة قد مكنت المسلمون من القيام بخدعة الإرتداد الظاهرى لاغراء الصليبيين على التوجه الى مكان الكمين ، وكان من نتائج تلك المعركة ابادة معظم الجيش الصليبى الذى كان قوامه — على حد قول المؤرخين الغربيين فوشيه دى شارتر وألبرت الأخينى — حوالى عشرة آلاف محارب[1] ، وتم أسر العديد من القادة الصليبيين على رأسهم الملك الصليبى بلدوين الأول ، وجوسلين حاكم أمارة الرها[2] .

لم يقف الصليبيون مكتوف الأيدى أمام تلك الخدع العسكرية ، انما تنبهوا لها ، وعملوا على الحيلولة دون نجاح المسلمين فى تحقيقها ، فعندما جرت الاشتباكات بين قوات تنكريد Tancred أمير أنطاكية (١١٠٤ — ١١١٢م / ٤٩٨ — ٥٠٦هـ) وبين قوات رضوان بن تتش حاكم حلب (٤٨٩ — ٥٠٧هـ / ١٠٩٥ — ١١١٣م) فى عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ ، قام الصليبيون باستدراج القوات الاسلامية الى المنطقة الصخرية فى غربى مدينة حلب ، كى لايستطيع المسلمون التحرك بخفة فى تلك المنطقة ، وممارسة أعمال الخدع العسكرية ، لذا انتهت المعركة فى غير صالح المسلمين[3] . والتساؤل الذى يفرض نفسه بعد تلك الحادثة هو : هل أثرت تلك الهزيمة على المسلمين ، وجعلتهم يقلعون عن ممارسة خدعة الارتداد الظاهرى ؟ .

■William of Tyre, op. cit. vol.I, P. 459;

Albert d'Aix, Op. cit., pp. 614-616

(1) Pulcher of ChartRes, op. cit., pp. 177 - 178; Albert d'Aix, op. cit., P. 614.

(2) Michael the Syrian, op. cit., vol III, p. 165

Radulph of Caen, Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expediation Hierosoly mitana, in R.H.C.-H. Occ., vol. III, p. 710

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٤٨؛ ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ، ص ١٥٠ — ١٥١ ، وأيضا :

Albert d'Aix, op. cit., pp. 612 - 622;

Radulph of Caen, op. cit.pp. 714 p- 715.

لم تؤثر هزيمة المسلمين عام ١١٠٥م / ٤٩٨هـ على ممارستهم لخدعة الارتداد الظاهرى ، انما استمروا فى القيام بها ضمن خططهم العسكرية بل استخدموها ضد القوات الصليبية بقيادة الملك الصليبى بلدوين الأول وجوسلين دى كورتناى حاكم الرها بعد أن تم اطلاق سراحهما ، واللذين سبق أن انهزما بفضل قيام المسلمين بتلك الخدعة . ففى عام ١١١٣م / ٥٠٧هـ التقى الجيشان بالقرب من بحيرة طبرية ، ونجح المسلمون فى إستدراج القوات الصليبية الى موضع الكمين بالقرب من جسر الصنوبر[1] ، وأحرزوا النصر عليهم وهذا يدل على أن المسلمين استخدموا أساليب مختلفة لاغراء الصليبيين على ملاحقتهم الى موضع الكمين .

ومن بين تلك الأساليب التى قام بها المسلمون لانجاح خدعة الارتداد الظاهرى ما جرى عام ١١١٥م/ ٥٠٩هـ عندما التقى الجيش السلجوقى بقيادة برسق بن برسق ، والقوات الصليبية بقيادة روجر Roger أمير أنطاكية (١١١٢ — ١١١٩م /٥٠٦ — ٥١٣هـ) ومعه بونز Pons أمير طرابلس (١١١٣ — ١١٣٧م/٥٣٢ — ٥٠٧هـ) ، والملك الصليبى بلدوين الثانى (١١١٨ — ١١٣١م/٥٢٦هـ) أمام مدينة كفرطاب[2] ، والتى كانت انذاك بحوزة الصليبيين ، بينما كانت قوات برسق تحاصرها فى محاولة لاستردادها ، وعندما رأى برسق تلك الحشود الصليبية الضخمة تظاهر بفك الحصار حول كفرطاب ،

---

(١) عن أحداث تلك المعركة راجع ماسنى .

(٢) كفرطاب : بلدة فى الشام ، تقع بين مدينة معرة النعمان وبين معرة النعمان راجع : البغدادى . المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ١١٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص ٥١٠ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ، ص ١٧٤ — ١٧٥ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., pp. 501 - 353;

Fulcher of Chartres, op. cit., pp. 211 - 212;

Albert d'Aix, op. cit., p. 701

والعودة الى اقليم الجزيرة ، فظن الملك الصليبى بلدوين ومعه بونز وروجر أن الخطر قد زال ، فعاد كل منهم الى منطقة نفوذه ، بينما استدار برسق فى سرعة فائقة وهاجم كفرطاب ، ونجح فى إستردادها[1] .

أنزلت تلك الخدعة العسكرية الخوف والهلع فى قلوب الصليبيين وجعلتهم يتوقعون أن يقوم المسلمون بها فى معظم معاركهم معهم ، ومن ثم أخذوا يتوخون الحذر فى ملاحقة المسلمين خوفا من الوقوع فى الكمائن ، ففى عام ١١٥٨م/٥٥٣هـ جرت المعركة بين قوات نور الدين محمود ، وبين القوات الصليبية بقيادة مليكهم بلدوين الثالث (١١٤٤ ـــ ١١٦٢م/٥٣٩ ـــ ٥٥٨هـ) بالقرب من بحيرة طبرية ، وكان النصر فى تلك الوقعة حليف الصليبين إذ اخذت القوات الاسلامية فى التراجع ، بينما خشى الصليبيون أن يكون ذلك التقهقر دربا من دروب الخدع العسكرية المعهودة عند المسلمين على أنفسهم فى معاركهم مع الصليبين ، فتواجهوا عن متابعة الفلول الاسلامية وضيعوا على أنفسهم فرحة احراز النصر على المسلمين ، واستغلال حالة الاضطراب التى عمت صفوفهم ، وذلك خوفا من الوقوع فى الكمين[2] .

إستمر المسلمون فى ممارسة خدعة الارتداد الظاهرى ، بالرغم من أن الصليبين قد فطنوا لها ، وحذروا منها ، فبينما كان السباق على أشده بين قوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وبين الصليبيين بقيادة مليكهم عمورى الأول للفوز بضم مصر فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية فى طور الاحتضار قام نور الدين بدوره فى مهاجمة الممالك الصليبية فى الشام لدفع الصليبين الى سرعة العودة ، والرحيل عن أرض مصر للدفاع عن ممالكهم[3] اذ هاجم نور الدين فى عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ حصن حارم ، والذى كان آنذاك بحوزة الصليبين ، ويخضع لسيطرة بوهمند الثالث أمير أنطاكية (١١٦٣ ـــ ١٢٠١م/٥٥٨ ـــ ٥٩٨هـ) فاستنجد بوهمند بريموند الثالث Raymond III أمير طرابلس (١١٥٢ ـــ ١١٨٧م/

(١) ابن القلانسى المصدر السابق ، ص ٣٥٢ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., vol. II, pp. 271 - 272

(٢) ابن الأثير المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٣٢

٥٤٧ ــ ٥٨٣هـ) ، وثورس الثانى Thoros II أمير أرمينية (١١٤٤ ــ ١١٦٧م/٥٣٩ ــ ٥٦٢هـ) ، قسطنطين كولومون Constantin Colomon القائد البيزنطى فى قليقية ، وتوجه بتلك الحشود الصليبية لمواجهة قوات نور الدين ، واصطف الفريقان للقتال واتفق المسلمون على أن تتظاهر ميمنة جيشهم بالهزيمة ، وتقوم بالانسحاب حتى تجذب فرسان الصليبين خلفها ، فيبتعدوا عن المشاة[1] . وعندما بدأت المعركة ، نفذت قوات الميمنة الاسلامية ما دبروه من خدعة ، فلما ابتعد فرسان الفرنج عن المشاة ، هجم بقية الجيش الاسلامى على المشاة وابادوهم ، وعندما أيقن الفرسان خطورة ابتعادهم عن المشاة ، استداروا لنجدتهم ، ولكن بعد فوات الأوان . اذ استدارت الميمنة الاسلامية هى الاخرى ، وأصبح الفرسان محاصرين بين القوات الاسلامية وعجزوا عن الفرار وأكثر فيهم المسلمين القتل والاسر ، فكان من جملة الاسرى بوهمند ، وريموند وقسطنطين كولومون ، بينما نجح ثورس فى الفرار من أرض المعركة[2] .

واذا كان نور الدين قد حقق الظفر على الصليبيين فى الشام باستخدام تلك الخدعة ، فان قائده أسد الدين شيركوه قد أصاب نفس النجاح على أرض مصر ، باتباع الخدعة نفسها ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليها . فعندما تجمع الجيش الصليبى بقيادة الملك عمورى الأول ، ومعه جيش الوزير الفاطمى شاور ، لمواجهة قوات أسد الدين شيركوه عام ١١٦٧م/٥٦٢هـ التقى الجمعان فى منطقة الصعيد عند موضع يسمى بالبابين عندما اصطف الفريقان للقتال ، عرف شيركوه أن حملة الصليبيين ستكون على القلب ظنا منهم أنه يتولى قيادته ، لذا وضع الاثقال فى القلب ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على قيادته ، وطلب منه أن يتظاهر

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٣٠٣ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ١٣٣ ــ ١٣٤ ، ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٤٥ ، وأيضا .

William of Tyre. op. cit., pp. 307 - 308

Micheal the Syrian. op. cit., vol. III, p. 324

بالهزيمة والارتداد عند حملة الفرنج عليه ، ويظل فى الارتداد ولا يقاتلهم ، فاذا عادوا منه عليه بالرجوع فى أعقابهم ، بينما اصطحب شيركوه جماعة من خيرة فرسانه ووقف بهم فى الميمنة ، فلما تقاتلت الطائفتان ، جرى ماتوقعه شيركوه اذ حمل الفرنج على القلب ، وأخذوا فى ملاحقة قوات صلاح الدين ، فحمل شيركوه على من تبقى من جيش الفرنج وشاور ، وأكثر فيهم القتل والأسر ، فلما شعر الملاحقون من الفرنج بذلك ، عادوا مسرعين ، فأطبق عليهم المسلمون وأحرزوا النصر عليهم[1] .

ثالثا : الهجوم التمويهى :

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالهجوم التمويهى وذلك بأن تتظاهر القوات الاسلامية بالهجوم على منطقة لتحويل أنظار الصليبيين عن الهجوم الرئيسى ، ففى عام ١١١٩م/٥١٣هـ كانت الوقعة بين القوات الصليبية بقيادة روجر أمير أنطاكية وبين القوات الاسلامية بقيادة ايلغازى الأرتقى ، اذ تقدم الفرنج الى المنطقة الجبلية شمالى قلعة ، الأثارب[1] ، وظنوا أن أحدا لايسلك اليهم لضيق الطريق ، وخلدوا الى السكون ، وراسلوا ايلغازى يقولون له لاتتعب نفسك بالمسير الينا ، فنحن واصلون اليك[2] وأراد ايلغازى أن يحول أنظار الصليبيين عن تقدم قواته لتطويقهم ، فأرسل سراياه لمهاجمة قلعة الأثارب[3] فظن الفرنج أن المسلمين قد تحولوا عنهم لهجوم آخر ، فلم يشعروا الا والقوات الاسلامية قد غشيتهم ، وأحاطوا بهم من جميع الجهات ، وحملوا عليهم ضربا بالسيوف ورشقا بالسهام ،

---

(١) قلعة الأثارب : فى شمال الشام ،وتقع بين مدينتى حلب وأنطاكية ، راجع : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ١ ص ١١٤ ، البغدادى : المصدر السابق جـ١ ص ٢٤ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥٥٤

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٨

فلم يفلت منهم سوى نفر يسير ، بينما كان الباقى بين قتيل وأسير ، وكان من جملة القتلى روجر حاكم أنطاكية[1] .

أثمرت خدعة الهجوم التمويهى أيضا بنجاح المسلمين فى استرداد مدينة الرها من أيدى الصليبيين ، فعندما أراد عماد الدين زنكى استعادة المدينة من حاكمها الصليبى جوسلين الثانى رأى أنه متى خرج لقصد محاصرتها اجتمع فيها الفرنج ، ودافعوا عنها ، فيتعذر عليه فتحها لما هى عليه من الحصانة[2] ، وأنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها ، فلجأ الى أعمال الخداع كى يغرى جوسلين على الخروج منها[3] ، فتظاهر بانشغاله بمهاجمة الأراتقة فى دياربكر ، ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد ديارهم فلما اطمأنوا وفارق جوسلين الرها ، جاءت عيون زنكى إليه فأخبرته[4] فجمع القوات وساز تجاه الرها فى جمادى الآخر ٥٣٩هـ/نوفمبر ١١٤٤م وضرب الحصار حولها لمدة أربعة أيام ، فيئس من بداخلها من وصول النجدات اليهم ، وقاموا بعدة محاولات لفك الحصار ، انتهت بالفشل ، ونجاح القوات الاسلامية فى دخول المدينة[5]، وكانت الرها أول حاضرة امارة

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٥٥٥ ، ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٠ وأيضا .

William of Tyre, op. cit., vol.1, pp. 523 - 526.

Albert d'Aix, op. cit., p. 683;

Fulcher of Chartres: op. cit., pp. 227 - 231

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ ١١ ، ص ٩٨

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٣٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٥) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٩ ، ابن العديم : المصدر السابق جـ٢ ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ، ابن واصل : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ وأيضا .

William of Tyre; op. cit., vol II pp. 140 - 143.

Michael the Syrian, op. cit., vol. III, pp. 259 - 263

Roger of Wendover, The Flowers of History, 2 vol., London, 1868, vol II, pp. 163 - 165

صليبية يستردها المسلمون ، وفى الوقت نفسه حاضره أول إمارة أقامها اللاتين فى الشرق الأدنى الاسلامى .

سار نور الدين محمود على نهج أبيه عماد الدين زنكى فى العمل على توحيد كلمة المسلمين وجبهتهم أثناء صراعهم مع الصليبيين ، كما سلك درب أبيه فى اتباع الحيل والخدع العسكرية فى معاركه مع الفرنج ، ومنها اتباع خدعة الهجوم التمويهى . فبعد أن فتح مدينة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ ، أراد أن يفتح مدينة بانياس ، وكانت آنذاك بحوزة الفرنج ، فقام باتباع تلك الخدعة وأظهر أنه يريد طبرية ، فتوجهت أنظار الفرنج اليها ،وعملوا على حفظها وتقويتها ، عندئذ سار نور الدين الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة ، بعدما قتل معظم فرسانها فى معركة حارم السابقة[1] ، فنازلها ، وضيق الحصار عليها ، حتى أحرز النصر على من بداخلها ، وأعادها من أيدى الفرنج[2] .

وهكذا حقق المسلمون النصر على الصليبيين باتباع تلك الخدعة ، ونجحوا فى استعادة كثير من المدن الاسلامية التى سبق أن استولى عليها الفرنج فى وقت بدأ فيه ميزان القوى فى الصراع الصليبى الإسلامى يعتدل — بعدما كان فى صالح الصليبيين ، وذلك بفضل الجهود التى بذلها رواد الوحدة الاسلامية : مودود ، وزنكى ، ونور الدين محمود . ولا شك أن الصحوة الاسلامية كانت عاملا له وزنه فى انجاح الخدع الاسلامية .

رابعا : استغلال الظاهرات الطبيعية فى العمليات العسكرية :

نجح المسلمون فى الاستفادة من الظاهرات الطبيعية العديدة ، واستغلوها لخادعة الصليبيين ، واحراز النصر عليهم ، ففى عام ١١٢٢م/٥١٦هـ التقت القوات

(١) عن تلك المعركة راجع ماسبق ص ٢٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ١١ ، ص ٣٠٤ ، ابن العديم : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢١ ، أبو شامة:المصدر السابق جـ١ ص ١٣٩ ، وأيضا :

William of Tyre, op. cit., vol. II, p. 310

الاسلامية بقيادة ملك غازى بن بهرام صاحب خرتبرت ، بالقوات الصليبية بقيادة جوسلين دى كورتيناى حاكم امارة الرها بالقرب من بلدة سروج[1] واستغل المسلمون هطول الأمطار على السهل القريب من تلك المنطقة ، وأحالته الى أرض ردغة ، فعملوا على جذب الصليبيين الى تلك المنطقة الموحلة لعلمهم أن الصليبيين لم يعتادوا على القتال فوق سطح تلك الاراضى ، ونجحت الخدعة الاسلامية ، وأحرز المسلمون النصر على الصليبيين ، بفضل خفة حركة المحاربين المسلمين من جهة ، واعتيادهم على القتال على الأراضى الموحلة من جهة أخرى ، وكان من نتائج تلك المعركة وقوع جوسلين الثانى أسيرا فى قبضة ملك بن بهرام[2] .

استغل المسلمون الظاهرة نفسها ولكن بأسلوب مغاير ضد الصليبيين فى مناسبة أخرى ، فعندما حاول الملك الصليبى عمورى الأول غزو مصر عام ١١٦٣م/٥٥٨هـ ، تصدى له الوزير الفاطمى ضرغام عند بلبيس ، واستغل فيضان النيل وقتذاك ، فحطم السدود ، فأغرقت المياه المناطق المحيطة وقتل البعض الأخر ، كما قامت القوات الاسلامية بادخال التغيرات بين الحين والآخر على تلك الخدعة العسكرية ، مما جعلها تستمر وتثمر فى الصراع الاسلامى الصليبى وتقوم بها القوات العسكرية الاسلامية ، وأيضا القبائل البدوية ، لانزال الخسائر بالصليبيين .

وبالنسبة لخدعة الارتداد الظاهرى ، فقد طبقها المسلمون بأساليب مختلفة ونجحوا عن طريقها فى احراز النصر على الصليبيين فى العديد من المعارك ، كان أشهرها على الاطلاق معركة حران عام ١١٠٤م/ ٤٩٧هـ والتى أبيدت فيها غالبية القوات الصليبية مما جعل الصليبيين يحذرون تلك الخدعة العسكرية الإسلامية ، ويضعون العراقيل فى سبيل نجاحها .

---

(١) سروج : بلدة فى منطقة الجزيرة الفراتية ، تقع بالقرب من مدينتى حران والبيرة . انجع البغدادى معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٧١٠ .

(٢) ابن القلانسى ، مصدر سابق ، ص ٢٠٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ، ص ٢٩٣ ؛ ص ... العادل ، مصدر سابق ، جـ٢ ، ص ٣٣ وما بعدها .

ومن الخدع العسكرية الاسلامية أيضا ما يعرف بالهجوم التمويهى الذى نجحوا عن طريقه فى استعادة العديد من المدن الاسلامية التى سبق أن استولى عليها الصليبيون كان أعظمها على الإطلاق مدينة الرها . وأوضحنا مدى نجاح المسلمين فى استخدام الظاهرات الطبيعية كالمطر والجبال والأنهار فى الخدع العسكرية ضد الصليبيين ، وما حققوه من ورائها من نتائج .

ومما هو جدير بالاشارة أن الحيل والخدع العسكرية الاسلامية فى الصراع الاسلامى الصليبى لم تتوقف بوفاة رائد الوحدة الاسلامية نور الدين محمود حتى عام ١١٧٤م/٥٦٩هـ وانما استمرت فى عهد صلاح الدين مؤسس الدولة الايوبية وخلفائه من بعده كما مارسها المماليك فى صراعهم مع الصليبيين الى أن تم رحيلهم عن الشرق الأدنى الاسلامى بعد سقوط اخر معاقلهم فى عكا عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ .

واذا كان المسلمون قد تفوقوا على الصليبيين فى الحيل والخدع العسكرية ، فلا يرجع ذلك الى صفات تميزوا بهم عنهم كالجرأة والشجاعة والاقدام والمغامرة فحسب ، ولايرجع أيضا الى إجادتهم لفن الحرب والقتال والتكتيك العسكرى فقط ، وانما يرجع — فضلا عما تقدم — الى معرفتهم التامة بجغرافية بلادهم وطبوغرافيتها وممالكها ودروبها بينما كان خصومهم يجهلون جغرافية منطقة الشرق الأدنى ، كما يرجع الى خفة حركتهم وخفة لباسهم فى منطقة تتميز بحرها الحار ، بينما كان أعداؤهم يرزحون تحت ملابسهم الحديدية الثقيلة وخوذاتهم وجيادهم الضخمة التى لاتصلح لحرب الكروالفر والتى أتاحت للمسلمين نصب شباكهم للايقاع بهم .

= Fulcher of Chartres, op. cit., p. 204;

Matthew d'Edesse, Charonique, in R.H.C. - Doc. Arm, VOL. I, p. 131;

William of Tyre, op. cit., vol. I., p. 540